ISeel أُصِيل

ظاهرة التغليب في العربيّة

ظاهـرة لغويّـة اجتماعيّة

تأليــف
الدكتور عبد الفتاح الحمـوز
أستاذ النحو والصرف

جامعـــة مؤتـــة

الطبعة الأولى
١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

يطالِعُنا بعضُ مَنْ صَنَّفوا في البلاغة العربيَّة - بأن التغليبَ بابٌ واسع يجري في فنونٍ كثيرة، وهي فنونٌ لم تَحْظَ باهتمام هؤلاء البلاغيِّين من حيثُ الحصرُ والشرحُ والتأويلُ والتعليل، إذ اكتَفَوْا بالحديث عن هذه الظاهرة في أثناء حديثهم عن أحوال المسند (١)، وأنواعِ البديع المعنويّ واللفظيّ، فهي النوعُ الحادي والثمانون (٢) . ويكادون يَحْصُرون موضوعاتها في مسائل لغويّة تدور في فلك المعنى، متناسين تلك التي تدورُ في فلك اللفظ كالحركتين الصرفيّة والإعرابيّة، والإعْلالِ والإبدال، وغير ذلك مِمّا سنبسط الحديث فيه . ولعلّ أَهمَّ هذه المسائل تغليبُ المذكَّر على المؤنّث، وأحَدِ المفردين فيما يسمَّى بالمثنّى التغليبي، والعاقلِ على غيره، والخِطاب على الغيبة، وغيرِها . ويُعَزّزونَ ما مرَّ بشواهدَ من القرآن الكريم في الغالب .

أما بعضُ مَنْ صنَّفوا في العلوم القرآنيّة فيظهر لي أَنَّهم أكثرُ استقصاءً لمسائل هذه الظاهرة في القرآن الكريم، على الرغم من تناسيهم تلك المسائل التي تُعَدُّ من باب التغليب في الحركتين الصرفيّة والإعرابيّة وغيرهما، فالزركشيّ يفرد لها مكاناً ينتهي فيه إلى أنّ للتغليب أنواعاً عشرةً في القرآن الكريم(٣). ولست مغاليا إنْ ذهبتُ إلى أنَّ ما ألجأهم إلى التحدُّث عن هذه الظاهرة - تأويلُ تلك الآيات القرآنية من حيثُ ما يتوافر فيها من بلاغة باستعمال اللفظة فيما لم توضع له، لأنَّ التغليب يُعَدُّ من باب المجاز.

ويكادُ النحويّون والتصريفيُّون يتناسَوْنَ هذه الظاهرة في تآليفهم المختلفة، إذا استثنينا تلك الإيماءاتِ إليها في التأنيث والتذكير والتثنية، وغيرِهما، وما طالعنا به ابنُ هشام الأنصاريّ في القاعدة الرابعة (أَنَّهم يُغَلِّبونَ على الشيء ما لغيره لتناسُبٍ بينهما أو اختلاط) في كتابِهِ النفيس (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)(٤)، والسيوطيّ الذي أفرد للتغليب مكاناً في كتابه (الأشباه والنظائر في النحو)(٥). ويكادُ حديثُ ابن هشام في هذه المسألة لا يزيد على ما طالعنا به علماءُ البلاغة أو

---

(١) انظر: محمد بن القاضي سعد الدين الخطيب القزويني (ت : ٧٣٩ هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت - دار الكتاب اللبنانيّ، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م : ١٨١، فرج الله زكي الكردي، شروح التلخيص، القاهرة - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (بلا تاريخ طبع) : ٢/ ٥٢ .

(٢) انظر فرج الله زكي الكردي، شروح التلخيص : ٤/ ٤٧٣ .

(٣) انظر بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت : ٧٩٤ هـ)، البرهان في علوم القرآن، ج : ٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة - عيسى البابي الحلبي وشركاه : ٣/ ٣٠٢-٣١٣ .

(٤) جمال الدين ابن هشام الأنصاريّ (ت : ٧٦١ هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ومراجعة سعيد الأفغاني، بيروت - دار الفكر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٩م، ٩٠٠-٩٠٢ .

(٥) جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ)، الأشباه والنظائر في النحو، مجلدان، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة - مكتبة الكلّيّات الأزهريّة، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م : ١/ ١٣٢ - ١٣٣ .

الزركشيُّ من حيـثُ المسائِلُ والقواعدُ القرآنية، أَمَّـا السيوطيُّ فيكتفي بتدوين كـلام أبي هشام زيادةً على ما في مغني ابن فلاح من أنَّ العرب تُغَلِّب الأقْرَبَ على الأبعد.

ويتناسى المحَدثون نحويِّيْن وصرفييّن وغيرَهم هذه الظاهـرة تماماً إلاَّ ما قَفَوْا فيه القدامى من غير أنْ يُفْرِدوا لـه مكانـا في تآليفهـم، بل جـاء منثورا في أثنـاء حديثهـم عن بعـض المسائل، كـالمذكَّر والمؤنِّث، والمثنَّى التغليبيّ، وغيرهما. ولعـلَّ ما يُعَزِّزُ ذلك ما في كتاب الشيـخ أحمد الحملاوي (زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع)(٦).

ولعلّ ما يدفعني إلى الكتابة في هذه الظاهـرة، ويفرض عليَّ سلطانَهُ، زِيادةً على ما مرَّ من إهمالٍ وتناسٍ لكثيرٍ من مسائلها وتفسيراتها وتعليلاتها - أَنَّ التغليب ليـس من سماتِ العربيَّة وحدها، بل يطالعنـا في لغاتٍ أُخَـرَ، فالإنجليـزيَّة مثلا تميـل إلى تغليب المذكّـر على المؤنَّث كـالعربيَّـة في بعض المسائل، ويبـدو ذلك بَيِّناً في جعل بنـاء المذكّر سادّاً مسدّ مـا يمكن أنّ يختصَّ به المؤنَّـث، نحو : . Child, teacher, Engineer, Doctor, Professor.

وأضرابها مِمّا يُسْتَغْنى بـه عن نظيره الذي للمؤنَّـث. والقولُ نفسُهُ في تغليب صفـاتِ الذكور على الإناث، نحو :

He is a clever man

She is a clever woman

He is an interesting person

She is an interesting Person

والمخاطَبِ على المتكلِّم، والغائب عليهما في مثل قولنا :

You and I should discuss this matter

He, you and I are invited to the party.

لئلاّ يُؤسَمَ المتكلّم بحبِّ الذات وتفضيلها على غيرها، وهـي مسأَلَةٌ لا تتوافر في العربية التي لا تميلُ إلى مثل هـذا التغليب، بل تُـؤثِرُ تغليبَ المتكلِّـم على المخاطـب، كما يتراءى لي، ولعلَّ ما يُعَـزِّزُ ما أذهب إليه قولُ العـرب: أنا وأنت قمنا، وتغليبِ المخاطب على الغائب في مثـل قولهم: أَنْتَ وزيدٌ قمتما، وهي مسألة سنَبسط الحَديثَ فيها في هذا البحث.

ومن التغليـب في الإنجليزية أيضا تغليـبُ المفرَدِ على الجمع، ويبـدو ذلك بيِّنـاً في إيجاد الجمع

(٦) الشيخ أحمد الحملاوي، زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، القاهرة - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة السابعة، ١٣٩١هـ-١٩٧١، ٧٣-٧٤،

بزيادة بعضِ اللواحق على صورة المفرد، أَمّا المثنَّى فلا يتوافر فيها. والقول نفسه في العربية في تغليب المفرد على المثنَّى والجمع اللذين يتوافران فيها، إذ يُكَوَّن المثنَّى بزيادة اللاحقتين (يْنِ) في الجر والنصب، و (انِ) في الرفع، والجمع بزيادة اللاحقتين (يْنَ) في الجر والنصب، و (ونَ) في الرفع، وتكسير صورة المفرد بالزيادة أو الحذْف، أو تغيير الحركات الصرفية لفظاً، كما في (أُسْدٍ)، وتقديراً، كما في: فُلْك، وهِجان، ودِلاص، وغيرها.

ومنه الاستغناءُ بألفاظِ الإشارة التي للذكور عن نظائرها التي يمكن أَنْ تكون للإناث، نحو:

This is my sister/brother

These are women / men

أَمَّا العربيَّة فتجعل لكلٍّ من المذكَّر مفرداً أو مثنىً أو جمعاً، والمؤنث مفردا أو مُثنًّى، اسما خاصًّاً، أما جَمْعُ الإناث فيستغنى عنه بالذي للذكور، نحو.

هذا رجلٌ، وهذانِ رجلان، وهؤلاء رجالٌ.

هذه امرأةٌ، وهاتانِ امرأتانِ، وهؤلاء نساءٌ.

وتلتقي العربية الإنجليزية في تغليب ألفاظ الإشارة السابقة التي للعقلاء على نظائرها التي يمكنُ أنْ تكون لغير العقلاء، والاستغناء بـ (أنا) ضمير المتكلّم، و (نَحْنُ) ضمير المتكلمين عن نظيريها اللذين يمكنُ أنْ يكونا للمؤنَّث، على الرغم من أنَّ اللغات العربيَّة تجعل للمتكلمة ضميرا خاصا، وهو (أنِ)، وبضمير المتكلمين (نحن) عن الضمير الذي يمكن أن يكون للمثنَّى.

وتطالِعُنا بعضُ مسائِلِ التغليب في لغاتٍ أخرى، كالإيطاليَّة التي تُغَلِّب المذكَّر على المؤنث(٧)، نحو. (cugin) الذي يُعَدُّ أصلا للمؤنَّث (cugin)، والفارسية التي تستغني بصفة المذكَّر عن صفة المؤنَّث، نحو،

آن مرد خوب است

آن ابستن خوب است

---

(٧) P. H. Matthews, Morphology An Introduction to the Theory of word-structure, Cambridge Textbooks in Linguistic
Raimo Anttila, An Introduction to Hisorical and Comparative Linguistics, Macmillan Publishing Co., Inc.

ISEEL أُصِيل

وتميل الألمانية إلى التفرقة بين المذكَّر والمؤنَّث والمحايد(٨)، نحو :

guter man

gute Frua

gutes kind (المحايد)

ولعلَّ أهميَّة هذا البحث تكمن - زيادةً على ما مرَّ - في أنَّ للمجتمع العربيّ وغيره بأعرافهِ وعاداته ومعتقداتـه - أثرا بَيِّنـا في هذه الظاهـرة، إذْ يمكنُ تعليـلُ فيضٍ مـن مسائلها بـأنَّ البقاء لـلأقوى، فالسلطة والسيطـرة على الآخرين من سماتـه التي يرغب في تحقيقهما وتحقيـق غيرهما من السمات التي ترفَعُ من شأنـه وقَدْره، فهو يحتلُّ الأرض، ويسلبُ وينهَبُ، والقولُ نفسه في أنَّ الـدولة الأقوى هي التي تحتلُّ المكانة المرموقة التي تبدو في خضـوع كثيرٍ من الدول لسلطانها. وهي مسائل لا بُدَّ أَنْ تُؤثِّر في اللغة، لأنها أداة التَّعبير ووسيلته، فليس يمستغرب أنّ تَنْساب إليها، ويبدو ذلك بَيِّناً في تغليب المذكّر على المؤنَّث في اللغات العالمية المختلفة، في الغـالب، لأنَّ الرجل أقوى من المرأة جسميًّا، ولا يجلـب العارَ الـذي تجلبه المرأة حملا على مـا كـان سائداً في تلـك المجتمعـات التي بُنِيَـتْ القواعـدُ والأصول على كـلامها، ولعلَّ خيرَ شاهـدٍ على ذلك قوله تعـالى : ﴿وإذَا بُشِّرَ أحدَهم بالأنثـى ظَلَّ وجهُه مُسْوَدًّا وهو كظيـم يتوارى من القوم من سوءِ ما بُشِّرَ به أيُمْسِكُـه على هونٍ أم يدسُّه في التراب ألا ساء مـا يَحْكُمون﴾(٩). والقول نفسـه في تغليب المتكلِّـم على المخاطـب رغبةً في تحقيـق الشهرة والظهور، وحبّ الذات، والمخاطب على الغائب؛ لأنَّه أولى من الغيبة، وأكثر تعريفاً وشهرةً. وغير ذلك من المسائل الأخرى التي سنحاولُ تَعْليلَها بتلك الأعراف، والتقاليد، والعادات، والمعتقدات التي كانت تُسَيْطِرُ على تلك المجتمعاتِ قديماً، ولا يزال بعضها يفرضُ سلطانَه على كثيرٍ من الناسِ في عَصْرِنا.

وتكمن أهميتـه أيضاً في أنَّ هذه الظـاهرةَ يمكن بـالحملِ عليهـا - تعليلُ كثيرٍ من مسـائل اللغة والنحو والرسم الإملائي التي لم يتنبَّه إليها القدامى والمحدثون، في الغالب.

ولتبدو هـذه الظاهرة بمسائلهـا وتعليلاتها المختلفة أكثَر وضـوحاً وإشراقاً؛ رأيتُ أنْ يكـونَ هذا البحث في بـابين، وخاتمةٍ، ومقدّمـة جعلتها في ذكر أهـمِّ ما دَفعني إلى الكتـابة فيها، وأنَّ العـربيَّة تلتقي غيرَها في بعض مسائلها، كالتذكير والتأنيث، في الغالب، ومنهجي فيه. أمَّا البابان فهما فيما يأتي :

الباب الأوَّل : ظاهرة التغليب : معناها، اللغويّ والاصطـلاحيّ، مسوِّغات المصير إليها، مواقف القدامى والمحدثين منها.

---

(٨) انظر د. إسماعيل عمايرة، ظاهرة التأنيث في العربيّة بين اللغة العربية واللغات السامية، دراسة لغويّة تأصيلية، عمان - مركز الكتاب العلمي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م : ٢٤.

(٩) النحل : ٥٨-٥٩.

ISEEL التأصيل

وهو في ثلاثة فصولٍ :

الفصل الأوَّل : لفظة التغليب لغة واصطلاحاً .

الفصل الثاني : القدامى والمحدَثون وظاهرة التغليب .

الفصل الثالث : مسوِّغات هذه الظاهرة، ودواعي المصير إليها في العربية .

الباب الثاني : ظاهرة التغليب ومسائل العربيَّة .

وهو في فصلين .

الفصل الأوَّل : ظاهرة التغليب والمسائل اللغويَّة .

الفصل الثاني : ظاهرة التغليب والمسائل النحويَّة .

أما الخاتمة فهي في أهمّ ما انتهيت إليه في هذا البحث، وما يمكن أنْ يزوِّد المكتبة النحويَّة واللغويَّة به من مسائِلَ تُنوسِيَ كثير منها في الغالب، إذْ لم يُنَبَّه على أنَّها من باب التغليب، أو من مسائله التي تدور في فلكه .

وبعدُ، فاللهَ أسألُ أنْ يوفِّقنا عالمين ومتعلِّمين في كلّ زمانٍ ومكان لخدمة لغة كتابه المبين، أشرف اللغات وأسماها، وأكثرها تعبيراً عن المعاني وأدَقِّها، وأسألُه المغفرةَ، إنْ زلَلْتُ، وجزيلَ الثوابِ، إنْ أصَبْتُ، إنَّه المولى والنصير، وسِعَتْ رحْمَتُهُ كلَّ شيءٍ .

المؤلِّف

أ . د . عبد الفتاح الحموز